الباب الأول
طبيعة حركية المجتمع
من خلال النص
"نموذج ثورة العربان"
(١٢٨٠هـ - ١٨٦٤م)

الفصل الأول

أبعاد الثورة والانتفاضة
"من عصر الولاة إلى عهد البايات"
من خلال النص

١ - الثورة فى عصر الولاة وأسبابها:

لقد شهدت إفريقية بعد فتحها عنوة موجات عارمة من التمرد والرفض والثورة على الولاة وممثلى السلطة المركزية سواء الخلافة الأموية أو العباسية. والعناصر التى شكلت عصب هذه الثورات المتعاقبة والتى أشار إليها الكاتب تتوزع كالآتى:

- ثورات البربر
- ثورات الإفرنج والروم
- ثورات البربر والإفرنج
- الخوارج والبربر

ففيما يخص ثورات البربر فجاء فى الإتحاف "أن كسيلة زحف بقومه إلى القيروان وعظم أمره بها واشتدت وطأة البربر على المسلمين[١].

وبالنسبة إلى الروم فإنه عندما "وصل زهير بن قيس البلوى برقة وجد الروم على قتالها فى جموع كثيفة وبأيديهم جموع من المسلمين فاستغاثوا به وكانوا فى قليل من الناس فقصد افتكاكهم ومانعه الروم فقتلوه[٢].

أما البربر والإفرنج فقد عسكروا فى بلاد صطفورة[٣] بجموع كثيرة[٤] وذلك بعد أن قضى حسان بن نعمان الغسانى على الكاهنة.

---

١ - الإتحاف: ١/ ١٠١

٢ - نفس المرجع

٣ - تقع شمال غربى تونس إلى بنزرت

٤ - الإتحاف ١/ ١٠٤

وبالنسبة لاشتراك الخوارج والبربر فى الثورة جاء فى الإتحاف أنه "لما استقر حنظلة بالقيروان خرج عليه عكاشة الصفرى فى جمع عظيم من الصفرية والبربر[1].

لكن كيف علل الكاتب خروج هذه العناصر المختلفة على سلطة الولاة لا سيما وأن بعض الدراسات الغربية المغرضة ترى أنه من سوء حظ المغرب تفريطه فى الحضارة الرومانية واعتناقه للإسلام. وما ثورات البربر حسب رأيهم إلا دليلا على عدم اعتراف هؤلاء بالإسلام وعدم اندماجهم مع العرب الفاتحين. لكن بماذا نفسر وقوف البربر إلى جانب الخوارج فى بعض ثوراتهم؟

لقد أرجع ابن أبى الضياف اندلاع هذه الثورات إلى أسباب سياسية واقتصادية: فالعوامل السياسية كرستها تنافس الزعامات القرشية واليمنية والخارجية على توسيع نفوذها فى المغرب.

فلقد شجعت الخلافة الأموية على إذكاء الضغائن والفتن بالمغرب الإسلامى. فأبو المهاجر دينار كره النزول بالقيروان لشىء بينه وبين عقبة بن نافع وبنى مدينة قربها. ويقول الكاتب فى هذا المجال "وهذا من مبادئ ضعف الإسلام بالحكم المطلق لأن المنافسة بينه وبين عقبة لا تقتضى خراب مدينة بالإقفار لغرض نفسانى ونقصها عائد على الإسلام[2]. وعقبة لم يستقر له قرار من الثوار والخوارج. كذلك سياسة العزل المقيت التى مارسها خلفاء بنى أمية ضد قادة الفتح دون مبرر، مما قلل نجاحهم فى توفير الاستقرار والأمن بالبلاد ومن الذين شملهم العزل نذكر:

---

١ - الإتحاف ١/ ١٠٤.

٢ - الإتحاف ١/ ١٠٤.

- عقبة بن نافع الفهرى عزله معاوية وولاه بعد ذلك ابنه اليزيد.

- حسان بن نعمان عزله والى مصر عبد العزيز بن مروان عن الخليفة الوليد وقد "حلف بعد عزله أن لا يلى عملا لبنى أمية[١].

- كذلك الشأن لموسى بن نصير الذى عذبه الخليفة سليمان وقضى على أهله وذلك لأنه أسرع بالهدايا والكنوز الأندلسية وخص بها شقيق الخليفة دونه. مع أنه أحسن معاملة البربر الذين ارتدوا اثنى عشر مرة من طرابلس إلى طنجة ولم يستقر إسلامهم إلا على يديه[٢].

فالصراع السياسى فى المركز أثر كثيرا على الأطراف مما هيأ مناخا ملائما للعمل الثورى. والصراع على القيادة والجاه والمنصب بين الأسر العربية المختلفة كان يعكس تنافسا على الإثراء وتكديس الأموال.

أما العوامل الاقتصادية فتعكسها رغبة الخلفاء فى التمتع بطيبات الفتح من ذهب وفضة وجوار، وكذلك رغبة بعض الولاة فى الحصول على الغنائم والفيء. لذلك قالت الكاهنة زعيمة "البربر" إن العرب لا يطلبون من إفريقية إلا المدن والذهب والفضة ونحن إنما نريد المزارع والمراعى فالرأى تخريب المدن والحصون وقطع الأشجار حتى تنقطع أطماع العرب[٣].

ولقد اتسمت معاملة الولاة للبربر بالقسوة إذ فرضوا عليهم ضرائب وجبايات باهظة وهذا ما يفسر خضوع البربر لإبراهيم بن الأغلب الذى خفف عليهم من وطأة المجابى وإسقاط بعض الضرائب[٤]. وخروج البربر عن

---

١ - نفس المرجع.

٢ - الإتحاف ١/ ١٠٩ .

٣ - الإتحاف ١/ ١٠٤ .

٤ - الإتحاف ١/ ١٢٩ - ١٣١ .

السلطة لم يكن لدوافع استقلالية عن نفوذ العرب ودينهم. فكسيلة لم يتزعم حركة تغيير لأنه دعا لاعتناق دين جديد أو من أجل الدفاع عن عقيدته من الاحتواء؛ إنما القضية لها وجه آخر[١] لذلك فإنه عند دخوله القيروان "أمن المسلمين على أنفسهم"[٢]. ووقوف البربر إلى جانب الخوارج إنما يدل على تمثل هؤلاء لعقيدتهم ومذهبهم المتشدد ضد المنحرفين عن مبادئ الإسلام.

هكذا أصبح الخوارج فى المغرب آنذاك حماة للضعفاء والمضطهدين وحربا على المستبدين والطغاة[٣] فالخوارج رغم أنهم أهل خصام وجدال لكنهم كانوا يحملون لواء الورع والتقوى والإيمان الراسخ.

وأمام الترف السياسى الذى ينخر مركز الحكم فى المشرق واستغلاله للأطراف لم يستطع إقليم المغرب أن يحتفظ بخيراته وكان عاجزا عن تنظيم نفسه[٤]. وهذا ما يعلل نقمة الخوارج على سكان المدن ورفضهم لحياة اليسر والبذخ وخروجهم عن ممثلى الخلافة بالمغرب. لهذا الغرض أنف البعض من الولاة عن مشاركة العامة فى أسباب التكسب مثل يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب فقد دفعه خوفه من غضب العامة وثورة الناس عليه إلى التفريط فى أملاك ابنه من أغنام وأمر بذبحها وأباحها للناس، فلبث الرجل مطاع الأمر آمن السرب إلى أن توفى[٥].

---

١ - رشيد الخونى: العوامل المؤثرة فى الثورات الشعبية بالمغرب العربى من الفتح إلى عهد الموحدين - رسالة دكتوراه دولة تحت إشراف الدكتور محسن العابد - السنة الجامعية ١٤١٠/ ١٩٨٩ - ١٩٩٠ جامعة الزيتونة - ص ٢٦٤.

٢ - الإتحاف ١ - ١٠٠

٣ - د. محمود إسماعيل عبد الرازق: التفسير الاجتماعى لثورة المغاربة فى القرن الثانى هجرى ص ٧٣.

٤ - عبد الله العروى: مجمل تاريخ المغرب. ص ١٢٧.

٥ - الإتحاف ١/ ١٢٠.

٢ - الثورة فى العهد الأغلبى والعهد العلوى والعهد الصنهاجى:

تطورت أثناء هذه العهود الحياة الفكرية والدينية نتيجة الاستقرار السياسى الذى عرفته الدولة الإسلامية فى العهدين الأغلبى والفاطمى. لكن الذى سيطر على هذه النهضة الفكرية هو التمذهب السياسى والفقهى بين الفكر السنى والفكر الشعبى وكذلك المذهب المالكى والمذهب الحنفى بالإضافة إلى حضور الخوارج الدينى والبربر. والتالى فقد تلون المنزع السياسى فى هذه العهود بالمذهب والجماعة. ومن أبرز الثورات التى أشار إليها المؤرخ فى هذه العهود ثورة الصنعانى داعية العبيدين، وثورة صاحب الحمار المخالف والمعادى لهم وانتهاء بالزحف الهلالى.

فالصنعانى بعد أن أزال دولة بنى الأغلب الموالية للخلافة العباسية وبعد أن أمن الناس واستولى على الأموال نقش على الدراهم من أحد الوجهين "بلغت حجة الله" وكتب على الوجه الآخر "تفرق أعداء الله"[١]. كما كتب على السلاح "عدة فى سبيل الله" ووسم الخيل بالملك لله[٢]. أما بالنسبة لمخلد الخارجى اليفرنى المعروف بصاحب الحمار فقد "سمى نفسه شيخ المؤمنين يلبس الصوف ويركب الحمار ويأكل الخشن"[٣].

---

١ - الإتحاف ١/ ١٥٠

٢ - نفس المصدر

٣ - صاحب الحمار: هو مخلد الخارجى اليفرنى بن كيداد من بلد توزر. ظهر بجبل أوارس منكرا مذهب الشيعة، وسمى نفسه شيخ المؤمنين. زحف لإفريقية بجيوش من البربر ووالى الهزائم على الدولة الفاطمية حتى استولى على القيروان وتونس سنة (٣٣٤/ ٩٤٦م). انظر الإتحاف ١/ ١٥٧ - ١٥٨.

وهذه الثورة تتدرج ضمن حلقات المقاومة البربرية التى ترغب فى إقامة دولة بربرية على غرار دولتى سجلماسة وتاهرت، كذلك الشأن بالنسبة لقبيلة زناتة البربرية والتى عرفت بحرصها الشديد على إقامة ملك بربرى لا سيما وأن "أيديهم بملك بنى أمية بالأندلس"[١].

ولما آل الحكم إلى المعز بن باديس الصنهاجى خلع طاعة الخليفة الفاطمى ومحا أسماء بنى عبيد من السكة ونقش فيها "لا إله إلا الله محمد رسول الله"[٢]. ولما أثار هذا السلوك حفيظة الخليفة الفاطمى بمصر أرسل إلى إفريقية قبائل بنى هلال للانتقام من المعز بن باديس الصنهاجى العبد الآبق حسب رأيه وعاث هؤلاء فى أرض إفريقية حتى أنهم مروا بقرية فتنادوا هذه القيروان واستباحوها فى الحين[٣].

وقد اكتفى ابن أبى الضياف بعرض بسيط لمختلف هذه الصراعات المذهبية دون نقد أو تحليل غير أنه أكد على أهمية المنبت السياسى للحاكم كشرط للاستقرار ودافعا للهرج والخروج "خصوصا أهل إفريقية فإن نفوسهم تسكن إلى واحد منهم نشأ فى أرضهم ولو من الموالى[٤].

وعلل هذا الأمر بكثرة القبائل والعصائب بإفريقية معتمدا فى ذلك على ما قرره ابن خلدون فى هذا الشأن وهو "عجز الدولة التحكم فى الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب لاختلاف الآراء والأهواء والعصبيات[٥]. وقد

---

١ - الإتحاف ١/ ١٦٥ .

٢ - الإتحاف ١/ ١٧٢ .

٣ - الإتحاف ١/ ١٧٣ .

٤ - الإتحاف ١/ ١٣٠ .

٥ - عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة بيروت ١٩٥٦ - ١٩٥٩ ص ٢٩٠.

أرجح الكاتب ثورة العبـيدين والإطاحة بالحكم الأغـلبى إلى الوهن والضعف فى هيكل الدولة لأن الظلم مؤذن بخراب العمران.

فـالمؤرخ لم يتـهم هذه الثورات بـالمروق والسفـالة والخـروج عن أولى الأمر، بل اعـتبر كل ثورة ضـرورة يحتمـها الطبع والتـاريخ لأن الظلم مؤذن بخراب العمـران "وأن الإنسان إذا رأى التهلكة اضطر إلى التـشبث بأى وجه كان لوقايـتها"[1]. ويمكن تلخـيص حركيـة الثورات المختـلفة التى وردت بالإتحـاف وأعنى فى عهـدى الولاة والدول الإسلامـية الأولى بإفـريقيـة على النحو التالى:

- ثورات بربرية تبحث عن شرعيـة اجتماعية وسياسـية فى كيان الدولة الجديدة لذلك اعـتقدوا مـذهب الخوارج بفـرعيه الصـفرى المتطرف والإباضى المعتـدل كمبدأ شرعى لانتـفاضهم الثورى ضـد كل تمثيل سياسى لا يعتبرهم.
- ثورات خارجية ذات "إيديولوجيا" دينية تعمل على إثباتها فى المغرب بعد أن فقدتها فى المشرق.
- ثورات دينية - سياسية يحركـها النسب والمذهب والوجدان كالعبيدين وهدفهم فى ذلك بلوغ الحجة وإدراك الحقيقة.

والقاسم المشترك بين هذه الثورات هو العامل الدينى، إذ كل حركة تتهم الأخرى بالشذوذ والانحراف عن تعاليم الإسلام. أما القوة الرابعة التى ظهرت على الساحة الاجتماعية والسياسية فى أواخر العهود المذكورة فهى قوة القبائل

---

١ - الإتحاف ١/ ٦٧

العربية التى أرسلها المعز إلى إفريقية والتى جاءت تبحث عن الخصب (الكلأ لمواشيها). وقد بعثوا إلى إخوتهم يشكرون الأرض والخصب وطيب المرعى وما حصل لهم من التغلب[1]. وقد ذهب البعض إلى اعتبار المسيرة الهلالية التى هبت للنجعة عمل سياسى الحافز إليه حرب العباسيين أو النجاة من أذاهم ومناصرة من تشيعوا ضدهم[2] ولا سيما القائمين على إفريقية آنذاك كانوا ينسبون إلى صنهاجة البربرية.

وبالنسبة لمراكز الاستقطاب والتأثير التى كانت تشكل القوى الدافعة والجاذبة والتى كان يخشاها السلطان السياسى.

- المدن
- البوادى
- أفراد الأسرة الحاكمة
- البربر

لذلك "فالاستراتيجية" السياسية تقتضى كسب ولاء هذه الرموز والترلف منها سواء بالمشاركة أو الامتياز أو الصرامة والإكراه كاستعمالة الخليفة العبيدى وكسبه ولاء صنهاجة البربرية وتأليبها على زناته وسلجماسة البربريتين. وفى الإطار وتدعيمها لحركية هذه البنى الاجتماعية وفاعليتها آنذاك كان المعز لدين الله الفاطمى قد أوصى يوسف بلكين بن زيرى الصنهاجى قائلا: "لا تنسى ما أوصيتك به وإن نسيت فلا تنسى ثلاثة أشياء:

---

١ - الإتحاف ١/ ١٧٤

٢ - محمد حسين زيدان: محاضرات وندوات فى الثقافة العربية. الطبعة الأولى - الرياض ١٣٩٧/ ١٩٧٧ ص ٢٤.

- لا ترفع الجباية عن أهل البادية.

- لا ترفع السيف عن البربر.

- لا تولى أحد من إخوتك وبنيك.

- استوصى بالمدن خيرا[1].

وقد استحسن ابن أبى الضياف مضمون هذه الوصسة التى تعكس المشروعية السياسية فى ظل الواقع الاجتماعى والسياسى والثقافى السائد آنذاك.

وقد اتخذت هذه الثورات منحى عموديا قوامه الإطاحة بالدولة القائمة وتغير المراكز والمناصب. وقد بين المؤرخ كيف ينزل الهرم بالدولة وصور تصويرا بليغا هذا الانحدار عند انقراض دولة بنى الأغلب حيث يقول "وزيادة الله يدافع دفاع هرم لا يزداد إلا ضعفا والصنعانى يستولى استيلاء شاب أيد لا يزداد إلا قوة[2].

بالإضافة إلى هذا المنحى النزاعى العنيف؛ نسجل شكلا من الحراك الأفقى تمثل فى انتفاضات شعبية مطلبية ومحدودة فى حل بعض المشاكل الظرفية ومحاولة دفع السلطان إلى تلبية رغبتهم، مثل ثورة الدراهم بالقيروان فى عهد إبراهيم بن الأغلب الذى ألزم الناس استعمال دراهم جديدة. فأنكرت العامة ذلك وغلقوا الجوانيت وتألبوا إلى رقادة وصاحوا على إبراهيم[3]. كذلك أهل تونس فى عهد المنصور آخر ملوك بنى حماد الذى

١ - الإتحاف ١/ ١٦٦

٢ - الإتحاف ١/ ١٤٩

٣ - الإتحاف ١/ ١٤٢

أراد أن يبيع الميـرة فمنعه الناس لحلول المجاعـة بالبلاد. فبقى هذا الأمـير فى ربقة قـهر العامـة بتونس[1]. وقد علل الكـاتب ثورات العامة بالمدن تـعليلا مقصديا شرعيا وهو دفع الضرر وتحقيق المصلحة.

٣ - الثورة فى العهدين الحفصى والحسينى:

أ - فى العهد الحفصى:

إن أبرز الحركات والثورات التى عرفتها الدولة الحفصية والتى أشار إليها ابن أبى الضياف هى:

- ثورة على بن إسحاق بن غـانية المرابطى ٥٨١هـ/ ١١٤٨م الذى كان معتقلا صحبة أخيـه يحى ببجاية وقد انضم إليه بنو حماد وبنو هلال الناقمـون على الموحدين وأعلنوا الولاء للخليـفة العبـاسى فى بغداد وقد تمركزوا بالجريد والجنوب التونسى عموما.

  يقول صـاحب الإتحاف عن محـاولة السلطة الحفصـية المتكررة تأمين الجنوب من شـر ابن غانية "وأوقع عبد الواحـد بن الشيخ أبى حفص بابن غانية الوقائع المشهورة[2].

- ثورة أحمـد المسيلى وهو رجل نشـأ بباجة مـحترفـا صناعة الخـياطة "اغـتـرب إلى الصـحـراء وانتـمى إلى البـيت وزعم أنه الفـاطمى المنتظر"[3]. وهذا الدعى حـسب نعت الكاتب له نال بيـعـة أغلب

---

١ - الإتحاف ١/ ١٨٨ .

٢ - الإتحاف ١/ ١٩٦ .

٣ - الإتحاف ١/ ٢١٠ .

المدن التونسية له وقتل كثيرا من حكام بنى حفص واتعلى عرش إفريقية سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٣م.

- ثورات داخلية متكررة أفرزتها مشكلة الوراثة السياسية وضعف شخصيات السلاطين مما فسح المجال أمام تمرد الأعراب حتى تغلبوا على جل البلاد[١]. وأصبح لهم نفوذا واسعا استفاد منه بعض السلاطين فى محاولة القوى المناوئة.
- ثورة الشابية[٢]: التى وصل نفوذها إلى ولاية قسنطينة وأبواب تونس وامتد جنوبا حتى قفصة ولم تسلم بلاد الجريد من غزو الشابية إلا نظير جزية دفعتها لهم. وقد عجز السلطان الحسن الحفصى من افتكاك القيروان من يد الشابى[٣].

وقد أرجع الكاتب كل أسباب هذه الثورات إلى الفساد السياسى المتمثل فى الحكم المطلق والاستبداد بالرأى وتجاهل منزلة الرعية.

فالمستنصر قال يوما "قد أصبح ملكنا عظيما فقال ابن العصفور: بنا وبأمثالنا فأصرها فى نفسه وأسر لبعض خاصته أن يلقوه فى الجابية"[٤].

---

١ - الإتحاف ١/ ٢٤٤ .

٢ - ثورة الشايبة نسبة إلى ابن عرفه الشابى (٩٤٩هـ ١٥٤٢م) وهو ابن الصوفى الكبير العارف بالله أحمد بن مخلوف الشابى. . . ويعتبر سادس شيخ للطريقة الشابية إحدى فروع الشاذلية. حمل لواء الثورة على الأتراك وعلى أحمد السلطان الحفصى وعلى الأسبان.

انظر على الشابى: عرفه الشابى رائد النضال القومى فى العهد الحفصى الدار العربية للكتاب تونس - ليبيا ١٩٨٢ ص ١٨ .

٣ - الإتحاف ٢/ ١٥.

٤ - الإتحاف ٢/ ٢٠٦ .

وفى هذه الفترة التاريخية لم يعد للدعوات المذهبية والسياسية أى اعتبار فى صفوف العامة والخاصة. فابن غانية الذى أعلن ولاءه للخليفة العباسى شرد شمله وشتت جمعه كذلك الشأن لأحمد المسيلى الذى عمل على إحياء الدعوة الفاطمية.

فاختلال التوازن لم يعد يكتسى الصبغة المذهبية وذلك لحدوث تحولات جديدة داخلية وخارجية أصبحت تفرض تعاملا جديدا من ذلك الحضور الصليبى بتونس فى العهد الحفصى واحتلال بعض المدن الساحلية من طرف النرمان بالإضافة إلى التدخل الإسبانى فى البلاد فى أواخر العهد الحفصى. وكل هذا يبرر مثلا ثورة الشابية ومحاولتها المحافظة على ذاتية البلاد وديانة العباد والبحث عن مشروعية إسلامية وقطب قوى يعمل على توحيد الأمة لا سيما بعد سقوط الخلافة ببغداد أو تداعى المدن الأندلسية وسقوطها أمام التهديد المسيحى. لذلك "بايع أهل مكة المستنصر الحفصى ولقبوه بأمير المؤمنين"[1].

وتتمثل التحديات الداخلية فى عجز المؤسسة السياسية الحاكمة عن قيادة المجتمع وتنظيمه إلى جانب القضاء على مقومات البلاد من قبل المتنازعين والثائرين سواء من أفراد الأسرة الحاكمة أو من القبائل العربية: لذلك كثرت الثوار والخوارج والدين واحد ولا يخفى ما فى الحروب الأهلية من نقص العمران وخراب البلدان[2]. كما أرجع الكاتب اشتعال الثورات إلى غياب الوازع الشرعى والسياسى لدى السلطان وهو ما يعرف عند الإفرنج

---

١ - الإتحاف ١/ ٢٠٤ .

٢ - الإتحاف ١/ ٢٩ .

بالقانون[1]. لكن هذا الصراع والتنافس لم يكن خارج المشروعية الدينية والوحدة الإسلامية.

ب - العهد الحسينى:

شهد العهد الحسينى صنفين من الثورات كما يذكرها الكاتب فى الإتحاف.

الصنف الأول برهن على هشاشة الكيان السياسى من حيث التأسيس ومشروعية القيادة. فالفتح العثمانى لهذا القطر سنة (١٢٠٧هـ/ ١٥٧٣م) وإن انتصر عسكريا فإنه لم يحقق النجاح سياسيا لأنه فى أقصاه المشاركة المحلية كان قد استدل العصبية المحلية بعصبية سياسية مملوكة حتى أن "أسطه مراد داى يرى لنفسه ترشيحا للولاية إلا أنه يخشى أنفة الترك[2].

إذن بقى النفوذ السياسى مزدوجا بين الباشا والداى والباى وكل يتمتع بمشروعية القيادة ويشكل مركزا من مراكز التأثير فى البلاد لا سيما وهم يمثلون قادة الفتح ولهم الفضل فى إلحاق القطر بالباب العالى (الخلافة الإسلامية). لذلك صرح دالى باشا الذى تزعم ثورة الجند على أبى الثناء محمود "أن هذه البلاد بلاد السلطان العثمانى والعسكر رعيته والباى وابنه أهملا البلاد"[3]. بل أكثر من ذلك عمل على جمع الشتات وتوحيد النفوذ السياسى فى صلاحية قيادية واحدة حيث نادى "أنا باى أنا باشا"[4].

---

١ - الإتحاف ١/ ٤٣ .

٢ - الإتحاف ١/ ٤٧ .

٣ - الإتحاف ٣/ ١٥٢ .

٤ - الإتحاف ٣/ ١٥٤ .

ومن سلبيات هذا التأسيس مسألة التداول على السلطة والوراثة على العرش إذ سجلنا أعنف الحروب وأدمى الثورات بين أفراد الأسرة الحاكمة كالفتنة بين الباشية والحسينية سنة (١١٤٩هـ/ ١٧٣٦م) والتى عبرت عن عجز الدولة الحسينية فى ممارسة الحكم من حيث كونه مشروعا اجتماعيا منفتحا على المجتمع بشقية المدينى والريفى. حيث "اضطرب حبل الأمن وافترقت الأمة شيعا"[١] نتيجة سوء تمثل المقاصد السياسية وغياب الوازع وحضور العصبية. قال حسين بن على مخاطبا يونس بن على باشا: أتخضب شيبى بدمى يا يونس وقد طهرت أباك فى حجرى فقال له: الملك عقيم يا سيدى"[٢].

ومن نتائج الثورة المدمرة:

- خراب العمران الحضرى والقروى حيث يقول ابن أبى الضياف "وما أسرع اليد العادية إلى الهدم فى هذا المغرب"[٣].
- انقسام البلاد والمجتمع إلى جزأين متناحرين فالباشية العربان من بنى رزق وأكثر دريد وقبائل جلاص وأولاد عون وأولاد سعيد والهمامة ومساكن وجمال والقلعة الصغرى وأكودة وزاوية سوسة وجبل وسلات وقبائل ماجر والفراشيش وأولاد عيار وروتان... والحسينية القيروان وسوسة والمنستير والمهدية والقلعة الكبرى وصفاقس[٤].

---

١ - الإتحاف ٢/ ١٣٢ .

٢ - الإتحاف ٢/ ١٤٢ .

٣ - المصدر السابق.

٤ - انظر الإتحاف ٢/ ١٤٠ .

فالانقسام والخلف الداخلى فى كيان المجتمع شمل المدينة ولم يستثن حتى القبيلة ذاتها "فقبيلة النماشة انقسمت إلى فخذين أولاد خيار وهم من شيعة على باشا والأعشاش وهم من شيعة حسين بن على[١].

- اتجاه منحنى النزاع الداخلى التدويل كانحياز الجزائر للباشية ومساعدة مالطة للحسينيين. هذا إلى جانب سيطرة الأسبان والفرنسيين على بعض الشواطئ الساحلية.

أما الصنف الثانى من الثورات فكان بمثابة ردود أفعال متفاوتة اقتضتها طبيعة المرحلة السياسية والاجتماعية التى تضرر منها المجتمع المحلى كثيرا خاصة فى قدراته الإنتاجية والمعيشية. ومن أبرز هذه التمردات والثورات التى وردت فى الإتحاف نذكر:

- امتناع بعض أهل باجة من أداء الإعانة[٢] المرتبة عليهم سنة (١٢٧٢هـ/ ١٨٥٦م) لأن هذا الأداء على الرقاب أشبه بالجزية[٣] لا سيما والقوم عرب مسلمون.

وقد نظرت للسلطة الحاكمة آنذاك إلى هذه العروش الثائرة باعتبارهم "عصاة جبالية"[٤] وعملت على قتالهم. وهذا الامتناع ربما كان امتدادا لحركة العصيان والرفض التى يتزعمها غومة المحمودى[٥] فى وطن الأعراض

---

١ - الإتحاف ٢/ ١٦٢ .

٢ - انظر نص منشور الإعانة الإتحاف ٤/ ٢٢٨ .

٣ - الإتحاف ٤/ ٢٣٧ .

٤ - المصدر السابق

٥ - غومة المحمودى: هو من سراة قومه المحاميد ومن شيعة بيت قرمانلى بطرابلس. ولما ثل عرشها باختلاف آلها دخل الصحراء وشن الغارات فى وطن طرابلس. قبض عليه=

والصحراء. وقد بقى هذا الرجل زمنا بأطراف المملكة والرسل تتردد بينه وبين قنصل الفرنسيين وذلك لأنه طلب الاحتماء به وأن يشفع فيه[١]. أما بالنسبة لابن أبى الضياف فقد اعتبر غومة المحمودى من أهل الفساد الذين يطلبون الرزق بسلاحهم[٢] بل أكثر من ذلك اتهمه بالثورة على الدولة العثمانية.

- أما فى الحاضرة قد خرجت جماعة إلى قصر باردو ومعهم صناجق من مقام الولى العارف بالله سيدى محرز[٣] وذلك سنة (١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م)... ولما حضروا عند مصطفى خزندار وسألهم عن سبب قدومهم فقالوا له جئنا شاكين من كثرة خروج القمح الذى اقتضى الغلاء[٤]. وقد اتهم الكاتب هذه الجماعة بالهمج والسفاهة ووصف زعيمها بالحمق والجنون واستنكر عليهم هذه الشكاية لقبحها فى القطر والأقطار لا سيما وقد طلبوا أيضا حكم الباى فى المحكمة على العادة عوض أحكام المجلس التى تنفذ الحكم على من يثبت عليه حق مالى من غير توسعه ولا أنظار.

=وبعث معتقلا إلى أسلامبول فصدر عليه الحكم بالنفى. فر من موضع نفيه وأتى الوطن التونسى (١٢٧٣هـ/ ١٨٥٦م) انظر الإتحاف ٤/ ٢٣٧ - ٢٣٨.

١ - الإتحاف ٤/ ٢٤٠ .

٢ - نفس المرجع.

٣- محرز بن خلف المتوفى سنة: ٤١٣هـ/ ١٠٢٢م: مؤدب للصبيان اشتهر بصلاحه وكراماته ومقاومته للشيعة. لقب "سلطان المدينة". ما زال ضريحه يزار ويتبرك به إلى اليوم. انظر ترتيب المدارك للقاضى عياض لبنان ١٩٦٧ ج ٤ ص ٧١٢ .

٤ - الإتحاف ٥/ ١٠١.

عموما حركة الثورة فى العهد الحسينى من خلال النص عرفت اتجاهين:

- اتجاه دائرى مـغلق منحى نزاعى عنيف إلى تغيـير مراكز القـيادة دون تغيـير لأوضاع الـبلاد وهموم العـباد اتجاه مـؤسس على مبـدأ القوة والحظوة والامتيـاز وفاقد لكل معيـارية إصلاحية أو مشـروعية بناءة ومتجاوزة.
- اتجاه ثان أفقى الحركـة انبثق من رحم المعاناة الاجتماعـية والتناقضات السياسـية. أراد التغيـير والإصلاح لكنه كان جـاهلا لآليات التنظيم الداخلى وغير قادر على تجاوز العوائق الذاتية.
- ترى أين تتـمـوضع ثورة ١٨٦٤ من تاريخ الانتـفاضـة والثـورة فى البلاد؟ وما هى علاقاتها بالثورات السابقة فى العهد الحسينى؟

* * *